الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

علاقة فينيقية بمصر

— ١ —

اتيانها بحوادث التاريخ إلى عهد الفتح العربي

اصل الرعاة

الرعاة (هيكسوس) اول حلقة من سلسلة العلاقات الوثيقة التي ربطت فينيقية بمصر من اقدم عصور التاريخ الى اليوم. وهم قوم ينتسبون الى السلالات الفينيقية الاولى وبعبارة اخرى هم اخلاط من البدو المتنقلين بين سورية وبلاد العرب ومعظمهم من الكنعانيين وهو مذهب ماريت باشا. والرأي الراجح فيهم انهم من قبائل سامية وكنعانية جاءوا من ارض كنعان وسورية وبلاد العربية واجتازوا فلسطين الى مصر. والامة الحثية هي التي جمعتهم في عهدة واحدة فانضووا تحت رايتها وتولت قيادتهم. وقد وجدوا في هيكل «تاميس» صحيفة قديمة ترمز الى هذه العهدة. ووجدوا في منطقة قرنه من اعمال مصر صحيفة اخرى استدلوا من رسومها على ان الحثيين هم الذين قادوا الرعاة في غزوتهم لمصر السفلى. وهذا ما يجلو لنا السر في حصر الفراعنة لاعمالهم الحربية في ما يلي من الزمن في شمال سورية موطن الحثيين اذلالاً لهم وانتقاماً منهم

عصر الرعاة في مصر

اجتاح الرعاة مصر السفلى بين القرنين الحادي والعشرين والعشرين وانشأوا فيها دولة قوية حكمت ٥١١ سنة على قول يوسيفوس و٥١٨ على قول غيره من المؤرخين

وغزوة الرعاة لمصر كانت نتيجة طبيعية للانقلاب الذي احدثته في العالم القديم فتوحات الشعوب الاسيوية ولا سيما العيلاميين الذين ضايقوا الكنعانيين وسدوا عليهم منافذ الرزق ففرّت بعض قبائل منهم من وجه الغزاة وما زالت تتنقل من مرحلة الى اخرى في طلب الاستعمار حتى وصلت الى مصر واوغلت في ارض الدلتا وبسطت سلطانها عليها

وقد اتهم بعض المؤرخين هؤلاء الرعاة بانهم ارتكبوا في غزوتهم هذه لمصر كثيراً من الفظائع كسبي النساء والاطفال وذلك الطيا كل وحرق المدن غير ان هنالك من الادلة التاريخية ما يثبت انهم ابقوا على الطيا كل والآثار ولم يدكوا او يحرقوا الا ما اقتضت عليهم ضرورة الفتح بدكه او حرقه من المدن والحصون بدليل انهم عثروا في «تانيس» المناوحة للسباط وفي تل البسطة «بوبست» قرب الزقازيق بتانيس وآثار لملوك تقدموا عصر الرعاة ولم يعبث هؤلاء بها والرعاة انشأوا في مصر السفلى كثيراً من المدن نظير آثاري «مدينة المهاجرين او الطارين» شرق السويس وكانت حصينة جداً ومدينتي تانيس وبوبست وكانتا عاصمتي ملكهم . واقاموا ابنية فخمة لا تزال آثارها شاخصة الى اليوم ونقشوا اخبارهم واسماءهم على هذه الابنية وعلى الآثار المصرية الاولى

* * *

وفي عصر الرعاة انشأ الفينيقيون في مصر السفلى كثيراً من المستعمرات التجارية كانوا يأوون اليها بسفنهم ومصنوعاتهم ويتعاطون تجارة مصر على سفنهم الى الاقطار الاسيوية . وابتدت متاجرهم على طول السواحل الافريقية المقابلة للساحل الاوربي من اطراف مصر شرقاً الى جبل طارق غرباً . واقتبس المصريون شيئاً كثيراً من اخلاقهم وعلومهم واخذوا عنهم صناعات كثيرة كانت دائمة عندهم . وبالفعل الفينيقيين بالمصريين في عصر الرعاة اتصل نفوذ فينيقية الى مصر قبل ان يتصل نفوذ مصر الى فينيقية ولاسيما فيما يتعلق بالصناعات والدين والآداب

وفي عهد الرعاة هجر يعقوب حفيد ابراهيم الخليل حبرون في ارض الخليل مع عشيرته الى مصر حيث انضم الى ابنه يوسف كبير وزراء اباني آخر ملوك الرعاة واشهرهم وكان اباً للشعب الاسرائيلي الذي اقام في مصر اربعة قرون

على ان اكتساح الرعاة لمصر السفلى وانصراقهم الى تعزيز دولتهم فيها ايقظ ملوك الصعيد الوطنيين من غفلتهم وما برحوا منذ ما رسخت قدم الغزاة في ارضهم يجاهدون في تعزيز مقامهم الى ان آنسوا من انفسهم القوة فهبوا لمناهضة الرعاة ووقعت الحرب بين الدولتين وطال اجلها ولا سيما الحرب الاخيرة التي ترجع الى اسباب دينية وقد نالت سجالاً بين الدولتين اكثر من مائة عام حتى قام احمس الاول مؤسس الدولة الثامنة عشرة من دول الفراعنة فحاصر آواريس عاصمة الرعاة باربعمائة وثمانين الف مقاتل ولكنه عجز دونها فصالحهم على ان يجلوا عن مصر آمنين فخرجوا منها في مطلع القرن السابع عشر قبل الميلاد الى اليهودية ولم يستطيعوا تخطيها لان الاشوريين كانوا قد بسطوا سلطانهم على الديار الشامية وظل قوم من الرعاة في مصر الشرقية يحرثون الارض ولا سيما في القرى الواقعة حول بحيرة المنزلة . وبخروج الرعاة من مصر رسخت سلطة الفراعنة في سائر البلاد المصرية

عصر القراعنة في فينيقية وسورية

لما اشتدّ ساعد المصريين واستتب لهم الامر في بلادهم تطلّعت اعناقهم الى التوسع في الملك واخذوا يترصدون الرماة غزاتهم في الامس ليثأروا لانفسهم منهم باكتساح بلادهم والانتفاع بثمار الفتح . وكانت سورية في ذلك الحين ميداناً يتبارى فيه ملوك الجزيرة الفراتية احرازاً لسيادة ممالكها الآمنة فكانت هذه المباراة باعثاً للقراعنة على التحفز لمنافسة الممالك الشرقية والقضاء على بابل والتسلط على هاتيك الاصقاع متوسلين بما شهدوا من التنافس بين ممالك سورية الصغيرة المتخاذلة وتهافتها على استنجادهم والتماس عونهم الى التعرض لشئونها تظاهراً منهم بالتوفيق فيما بينها او بردّ غزاة المشرق عنها على نحو ما فعل الرومان وسواهم من طلاب الاستعمار بعد ذلك بحقبة من الدهر اذلالاً للامم الشرقية والتسلط عليها . وهكذا شهرت الدولة المصرية على آسيا حرباً عواناً وثبتت على مناوأة سورية ومنازعة الممالك الشرقية السيادة فيها خمسة قرون كاملة اي من القرن السابع عشر الى اواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد حيث ابتدأ عصر الاستقلال الوطني في سورية

على ان الفاتحين المصريين قاسوا الشدائد في اخضاع ملوك سورية لما كان هؤلاء عليه من النزوع القطري الى الاستقلال ومن اولئك الفاتحين من افنى سني ملكه في مقاتلة العصاة في سورية ورد الممالك الكنعانية الى طاعة مصر نظير طوطمس (تحوتمس) الثالث وسنوسرت الاول وامنمحيس الثاني وامنمحيس الثالث . وقد تتبع الفاتحون في غزواتهم طريقاً واحداً فكانوا يجتازون بلاد كنعان الاصلية الى مدينة مجدّو الحصينة ومن هناك يجتازون الوهاد فوق بحيرة طبرية في جوار قدس « بحيرة الحولة » ومنابع الاردن عند مدينة لايش ثم يسيرون في المضايق عند سفح حرمون الغربي ولبنان الشرقي ثم يمرون على وادي الليطاني الذي كان وقتئذ بحيرة كبيرة ثم على يعلبك فوادي العاصي الى ان يصلوا الى قدس الكبيرة وهي حمص وحماة ثم يدخلون في البادية سائرين الى قرقيسياء وهناك يعبرون الفرات الى الجزيرة الفراتية

اما مملكة صيدون فقد والتهم وحالفتهم واقتنعت اثرها مملكتا بيروت وجبيل فحفظوا لها استقلالها الداخلي ولذلك فان معظم الضرر الذي نشأ عن غزوة مصر لسورية وما بين النهرين لحق البلاد الكنعانية والآرامية الواقعة بين مصر وآسية . ولم ينل فينيقية والمدن الساحلية منه في بادىء الامر الاّ القليل لان الفينيقيين والوا اولئك الفاتحين فتجنبوهم وسلكوا في غزواتهم طريق الشرق على نحو ما بيّنا في ما تقدم

وكان القراعنة في غزواتهم يكتفون ببسط سيادتهم العليا على البلاد التي يفتتحونها في الديار السورية والاسيوية لعجزهم عن اخضاعها تماماً ولعدم وثوقهم من ثباتها على ولائهم

وقتاً طويلاً فيفرضون عليها خراجاً سنوياً ويجندون جماعة من اهلها ويرتبون في مصر خلفاء ملوكها ويأخذون منها رهائن ويقيمون حاميات عسكرية في مدنها لئلا تخلع نيرهم وتمالىء عدائهم عليهم . وكانت حكومة البلاد الخاضعة لمصر مماثلة لحكومة الاقطاعات تتمتع باستقلالها الداخلي التام ويتولاها حاكم من اهلها يلقب بملك . وكان الفراعنة يحافظون على شرائعها الوطنية ويحترمون عادات اهلها وتقاليدهم ودياناتهم ويطلقون لها الحرية في مسالمهم او ابرام معاهدة معهم يتبادل الفريقان بمقتضاها المنافع السياسية والتجارية والاقتصادية

حلف فينيقية ومصر

وقد اثبت المؤرخون انهُ كان بين فينيقية ومصر معاهدة تقضي على الفريقين بالتآزر والتعاون في الخطوب والملمات . فكانت صيدون عاصمة فينيقية لا تتعرض قط للفراعنة في غزواتهم للاقطار الاسيوية . وكان اسطول صيدون رهن اشارتهم لينجدهم في غزواتهم ويسير بجندهم لجباية الجزية من الجزر والاقاليم الساحلية ولها في مقابل ذلك تعزيز الاسطول بالجند المصري ومعدات الحرب . وقد اقام الصيدونيون على مسالمة الفراعنة حقبة طويلة من الدهر فسالموا الدولة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين ولاسيما في عهد طوطمس الثالث الذي انشأ عمارة بحرية عهد اليهم في قيادتها وتعهدها بالعناية اللازمة وهكذا في ولاية رعمسيس الاول مؤسس الدولة التاسعة عشرة وابنه سأتي الاول ورعمسيس الثاني . واستمرت الصلات مستحكمة الحلقات بين مصر وعاصمة فينيقية الى عهد الدولة السادسة والعشرين فان هذه الدولة استخدمت الصيدونيين في عماراتها البحرية لانها وجدتهم ابرع اهل زمانهم في فن الملاحة ولذلك لم يتعرض اولئك الغزاة بسوء لصيدون وهكذا لجبيل وبيروت اللتين حذتا حذوها في مسالمتهم خلافاً للممالك الكنعانية الاخرى فانها شايعت اعداء مصر من كلدان واشوريين ونصرتهم عليها

والنتيجة ان خضوع فينيقية لمصر لم يكن الا لتبادل المنافع السياسية والاقتصادية على ان يكون ملوك فينيقية سائدين في قومهم مستقلين في شؤونهم بمقتضى شرائعهم الخصوصية ولكنهم يعترفون بسيادة مصر ويؤدون للفراعنة الجزية وينجدونهم باساطيلهم . وهذا التحالف بين مصر وفينيقية من اكبر الادلة على ان ممالك الفينيقية كانت على ضيق مساحتها عزيزة الجانب وكان شأنها مع مصر من وجوه كثيرة شأن النظير مع نظيره

حروب الفراعنة في سورية

واهم الحروب التي اصلى الفراعنة نارها في سورية كانت مع الرتن وهم مزيج من التوديين

والآراميين ومع الحثيين الشاميين وهم الذين قادوا عشائر الرعاة في غزوتهم لمصر . واول من حاربهم من الفاتحين المصريين طوطمس الاول الذي اقام على الفرات نصباً نقش عليه خبر فتحه لبلاد الحثيين . وطوطمس الثالث الذي افتتح من المدن السورية ١١٩ مدينة نقشت اسماؤها على احد جدران الكرنك في الاقصر . وطوطمس الرابع وقد نقش خبر حملته عليهم على حجر وجدوه في هيكل امون في طيبة عاصمة الفراعنة . ثم قام رعمسيس الاول وهم بإخضاعهم فشل ومع انه كان يترفع عن محالفة ملوك سورية عملاً بخطة سلفائه اضطره ما شهد من بطش الحثيين وقوتهم الى محالفتهم محالفة الند للند كما جرى للذين تقدموه من الفراعنة مع الصيدونيين. ولما افضى تاج مصر الى سائي الاول عاد الحثيون الى مناوأة مصر فزحف عليهم وفتح قادش « قدس » عاصمتهم ثم حالف ملكهم موتنار . غير ان هذه الحلفة لم يطل اجلها فخان موتنار العهد وقطع على المصريين طريق حلب والفرات بحيث باتت املاكهم محصورة في فلسطين وما جاورها من بلاد الآراميين والفينيقيين . وقد نقش اخبار غزواته لبلاد الشام في هيكل امون في الكرنك . وفي جملة آثار هذه الغزوات صورة تمثل اهل لامنون « اعالي لبنان » يقطعون خشب الارز والسرو لابلية الطائر وصورة اخرى تمثل مدينة قادش يحاصرها المصريون

* * *

ثم قام رعمسيس الثاني « سيزوستريس » بين اواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر فثارت فلسطين عليه بإغراء الحثيين فزحف عليها وأخضعها ووصل الى بيروت فنقش صورته على صخر عند مصب نهر الكلب تذكاراً لانتصاره هذا وفي ايامه كان الحثيون في ابان صولتهم واتساع نطاق املاكهم حتى تناول جميع الاقاليم الواقعة بين قادش واطراف آسية الصغرى جنوباً ولبنان والفرات شمالاً ولانهم اقاليم سورية برمتها ما عدا صيداء وجبيل فانهما انحازتا الى جانب مصر . وقد كسروا رعمسيس ثم استظهر عليهم عند العاصي في معركة هائلة نقش خبرها في هيكل الكرنك واستمرت الحرب بينه وبينهم اربعة عشر عاماً ولم تخمد جذوتها الا بمقتل ملكهم موتنار قتيلة في احدى المعارك فخلفه اخوه كيتاسار وابرم مع المصريين عهدة نقشت على جدار في هيكل الكرنك وقد تعاهد فيها الملكان على التضافر والتعاون واعتبار الشعبين المصري والحثي متساويين في جميع الحقوق والمرافق . وحافظ المصريون والحثيون على هذه العهدة قرناً كاملاً . وبمقتضاها جعلت مدينة جبيل حداً فاصلاً بين املاك الدولتين فجعلت املاك مصر في الغرب والجنوب واملاك الحثيين في الشرق والشمال. وتزوج رعمسيس بنت كيتاسار الحثي وزاره هذا في مصر واقيم في مدينة طيبة عاصمة مصر حيث التقى المتحالفان نصب نقشت عليه صورتهما تتوسطهما صورة رعمسيس الحثية. ومن ذلك الحين توطدت العلاقات بين الشعبين المصري والحثي واخذ المصريون يستعملون في لغتهم

القاطاً من فروع اللغة السريانية وانتقلت عبادة كثير من الآلهة السورية الفينيقية الى مصر ولا سيما عبادة بعل وعشتروت « الزهرة »

الفتح الاسرائيلي

تلا عصر الفراعنة في سورية وآسية فتح الاسرائيليين لارض الميعاد وطن آبائهم . خرجوا من مصر منهزمين بقيادة موسى من وجه رعمسيس الثاني الى برية سيناء وأوغلوا في الصحراء فتاهوا هناك اربعين سنة كانت في اثنائها قرى المصريين والحثيين قد خارت وملوا القتال فعقد الصلح في ما بينهم . ثم مات رعمسيس وخلفه ابنه منفتاح وفي عهده تم خروج بني اسرائيل من ارض مصر الى ارض الميعاد بعد ان اقاموا في ارض الفراعنة نيفاً واربعة قرون وافتتحوا ممالك الكنعانيين واستقروا في فلسطين واحجمت مصر عن انجاد هذه الممالك لاشغالها ان ينالها اذى في تعرضها لهم وهم لم يخرجوا منها الا بعد ان انزلوا بها البلاء الاعظم فرأى الفراعنة انهم في غنى عن تجشم المصاعب في الذود عن ارض كنعان ولا سيما اذ الفاتحين لم يتخطوا حدود مملكة صيدون حليفة مصر ولم يجاوزوا الاردن الى المدائن الفينيقية التي امتنعت عليهم بغير ان تفتقر الى عون مصر حليفتها

توتر العلاقات بين مصر وفينيقية

وما انفكت المودة متحكمة الحلقات بين مصر وفينيقية الى ان سقطت صيدون وافضت السيادة السياسية الى صور في مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد . فهاج مجد صور مطامع الفراعنة ورفعوا لها بالمرصاد الى ان جلس على عرشها عبد عشتاروت في القرن العاشر فأغرى فرعون شيشق ابناء مرضعه الاربعة بقتله اضعافاً لشأن الفينيقيين بالانقسام الداخلي الذي يعقب عادة مثل هذا الانقلاب السياسي . واتخذ فرعون من جهة اخرى فرار يربعام الافرائيمي من وجه سليمان والتجائه اليه لايقاع الشقاق بين الاسرائيليين . وقد نجحت حيلته في الامرين وغزا فلسطين وافتتح اورشليم وانشقت مملكة اسرائيل الى شطرين مملكة يهوذا ومملكة اسرائيل وكانت بين المملكتين حروب طاحنة أثارت كوامن الطمع في نفوس الفاتحين من ملوك دمشق وفراعنة مصر وملوك اشور وبابل وفتحت عيونهم على ما يستطاع من الغنم في مثل هذا الانقسام وافضى الامر اخيراً الى وقوع مملكة اسرائيل تحت نير الاشوريين ومملكة يهوذا تحت نير الكلدان

وأما صور فبعد مقتل عشتاروت وجلوس ابن مرضعه على العرش نشبت فيها نار الفتن الاهلية فأوهنت قواها وشلّ اعصابها تنازع الزعماء السيادة فيها ولم تسترد ما كان لها من

المجد الطريف الا في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد حيث جلس يكماليون على العرش وفرّت اخته ديدون الى افريقية بطائفة من اشراف المملكة وشيدت هناك مدينة قرطاجنة . وبقرار ديدون هذه توطد النظام الجديد في صور وأصبحت المملكة الناشئة للشعب بعد ان كانت للخاصة

العصر الاشوري

وتوالت على سورية وفلسطين حوادث كثيرة وقف المصريون بازائها وقفة الرقيب المحاذر لأن اشور كانت تسلطت على هاتيك البلاد ودانت لها مصر . وقد ارعبت اشور العالم القديم بالمظالم التي ارتكبتها في تغلبها على الشعوب الاسيوية ونسج ملوكها على منوال واحد في الاستمتاع بشقاء هذه الشعوب . على ان مصر ما برحت منذ رسوخ قدم اشور في الديار الشامية تكيد لها المكايد حتى اذا نجحت حيلتها في اثارة السوريين عليها هبّت لمقاتلتهم الغنيمة والا اخلدت الى السكون وتلاهت بشؤونها الداخلية وحمت من التجأ اليها من ملوك فلسطين اثر غزوات الاشوريين لبلادهم

وكان الفينيقيون يضطرون احياناً الى معالأة اشور على المصريين اشفاقاً من بطشها فانجدوا آسرحدون ثالث ابناء سنحاريب في حملته على مصر واخضاعه لها وانهزم ملكها ترهاقة احد ملوك الدولة الحبشية من وجهه وهكذا ابنه اشور بانيبال فانه لما غزا مصر وطرد الاحباش منها في منتصف القرن السابع أكره ملوك فينيقية وسورية على انجاده برجالهم

عصر الكلدان

ولما انقرضت دولة اشور قامت على انقاضها دولتا مادي وبابل واقتسمتا ممالكها فكانت سورية ومصر من نصيب نبوبلاصر البابلي . غير ان هذا الفاتح تشاغل عن الديار الشامية والمصرية بمعارضة الماديين حتى ان السوريون بضعفه فدانوا للمصريين وقام فرعون نيخو فاستقل ببلاده وحمل على سورية وفتح اشدود . وخلفه نيخو الثاني — وهو الذي ارسل بعثة فينيقية دارت حول القارة الافريقية — فزحف على الديار الشامية وبعد ان كسر ملك يهوذا وفتك به عند مجدّو عقاباً له على ولائه لاشور استأنف الزحف الى فينيقية حليفة مصر في الامس فرحب به الفينيقيون وأنجدوه برجالهم ووصل في غزوته هذه الى الفرات . غير انهُ ما كاد يستتب الامر لمصر في ديار الشام حتى زحف عليها نبوخذ نصر « بختنصر » وهزم المصريين وأجلاهم عنها ووطد سلطانه فيها . على أن هؤلاء عادوا الى دس الدسائس فيها

وحرضوا اليهود على خلع نير بابل فزحف نبوخذ نصر عليهم وكسرهم ثم اعاد الكرة على فلسطين وسبى من اهلها عدداً عظيماً الى بابل

ولما وقع التفور بين مادي وبابل واضطربت المملكتان تحين حفرع خلينة نيخو فرعون مصر الفرصة وعاد ينازع بابل سيادة سورية وتعاهد مع بعض ملوك فينيقية ويهوذا وعمون وموآب على خلع نيرها وزحف على صيداء وافتتحها واستخدم اسطول صور لافتتاح قبرس وسائر المدن الفينيقية فدعمهُ الفاتح البابلي وكسره تحت اسوار اورشليم وافتتحها وجلا ملكها صدقيا الى بابل . ثم حاصر صور ثلاث عشرة سنة فعجز دونها . ثم اعاد الكرة عليها في اواخر القرن السادس فتم له فتحها ودمرها . اما فرعون فكان قد تأهب لانجاد صور ولكن قبل ان يستكمل معدات النجدة وقعت في ايدي الكلدان . وخيل الى صور ان مصر احجمت عن مساعدتها عمداً خوفاً من الفاتح البابلي فاستاء اهلها ولذلك لما عمت عمارة مصر بآثارة الفينيقيين على الكلدان لم تتردد صور في نصرة البابليين على مصر . وعندنا ان الفينيقيين كانوا لا يزالون على ولاء مصر ولكنهم لم يتجرأوا على ممالأتها ضد نبوخذ نصر خوفاً من ان يحل بهم ما حل باخوانهم الصوريين فتقلبوا على المصريين . ولكن اسطول مصر استظهر على اسطولهم وافتتح صيداء وارواد وغيرها من مدن فينيقية . غير ان ولاية مصر على سورية لم تستمر اكثر من اربع سنين فعاد نبوخذ نصر وافتتح سورية ومصر واخضعهما لبابل

عصر الفرس

وفي ولاية الفرس على سورية خلَّ شأن المصريين في علاقتهم بملوكها وشعوبها كما كان لعهد الاشوريين والبابليين . وكان الفرس يستنجدون السوريين على المصريين فلا هم يجرؤون على معارضة فارس ومناصبتها العداء ولا يسعهم نبذ تقاليدهم الموروثة القاضية عليهم بموالاة المصريين ومناصرتهم فكان موقفهم ازاء تنازع مصر وفارس محفوفاً بالمخاطر

ذلك انه لما استحوذ قورش الفارسي على بابل دانت له فينيقية فصادقها واستعان بها على المصريين فجهزت له اسطولاً ضخماً لمحاربة مصر . وخلفه على اخضاعها ابنه قمبيز مستنجداً العمارة الفينيقية . وباتت السفن الفينيقية من اعظم قوى الدولة الفارسية تجري عليها المرتبات الضخمة وقد فازت بفتوحات كثيرة استعادت فيها مجد فينيقية وعظمتها

وفي ايام ارتحشتا الاول كان الاسطول اليوناني يغزو السواحل الفينيقية حيناً بعد حين انجاداً للمصريين على الفرس ولكن العامل الفارسي كسرهُ . ثم همت مصر باسترجاع سورية فتأهب الاسطول الفينيقي لصدّ غارة اسطولها فكفت عن التطاول . وفي ايام ارتحشتا الثالث ثارت العمالات الفارسية فاختلس فرعون نكتانبو فرصة الاضطراب وزحف على فلسطين وكسر الفرس .

وشاع نبأ انكسار الفرس في حرب المصريين فثار ملوك قبرس وفينيقية وثبتت فينيقية على المقاومة وانجدتها مصر بجيش من جندها بقيادة منتور الرودسي فزحف ملك الفرس على صيداء وافتتحها ثانية بمساعدة زعيم جند مصر وبسقوط صيداء عادت فينيقية الى طاعة الفرس . ثم زحف ارتحششتا على مصر لمعاقبتها وافتتحها وضمها الى مملكته . وما زالت كذلك الى ان انتصر الاسكندر المقدوني على داريوس سنة ٣٣٤ ق.م وقضى على سيادة الفرس في الديار الشامية والمصرية وضم سورية الى فينيقية وجعلهما ايالة واحدة

عصر البطالسة والسلوقيين

وفي عصر البطالسة والسلوقيين خلفاء الاسكندر لم ينفك المصريون عن التعرض لشؤون سورية تنابعوا الخطة التي جروا عليها في عهد سلفائهم . وكانت فلسطين من نصيب بطليموس صاحب مصر وتعاقب البطالسة عليها الى بدء القرن الثالث . واما فينيقية فظلت تتنازعها ايدي انتهازيين من هؤلاء الملوك الى اجل طويل فكانت تارة تقع في ايدي السلوقيين واخرى في ايدي البطالسة اصحاب مصر الى ان تسنى للرومان التدخل في شؤون سورية لالتجاء هنيبال بطل قرطاجنة اليها وهو الذي عدو لهم . ولم يطل الزمن حتى وقعت الحرب بين الرومان والسوريين وانجلت عن فوز الرومان وفرضهم الجزية على ملك سورية . وبعد حين عادت رومية الى التحرش بسورية واستفزتها الى مناصبتها العداء — وفي اثناء ذلك كانت مصر تدس الدسائس في الديار الشامية اضعافاً لها ليتسنى لها الاستيلاء عليها . فوعزت الى الاسكندر بالا ان يدعي العرش السلوقي ففعل وظفر به . ثم قام عليه ديمتريوس نيقانور وخلعه عن العرش بمساعدة مصر . واساء التصرف مع الشعب فنشبت ثورة في البلاد وبرز المكابيون بقيادة سمعان المكابي فصالوا واتوا اعمالاً عظيمة واستقلوا بالملك . وتلا ذلك قيام تريفون على انطيوخس اثامن وفتكه به واستبداده بالدولة وحدوث اضطراب عظيم ادى الى انقسام المملكة وتخاذل امرائها وزعماء اقوامها والسياسة الرومانية جارية في مجراها بكل دقة واحكام

ولما دخلت الدولة السلوقية في دور الاحتضار كان الضعف بلغ اشده من المملكة السورية فتحين الرومان الفرصة وجاء بومبايس سنة ٦٣ ق . م وافتتحها وجعلها ولاية رومانية . ثم اكتسح القطر المصري والحقه بالممالك الرومانية . فكانت مصر وسورية في عصر الرومان شقيقتين تتقاسمان البلوى وتشكوان عبر الزمان على السراء ولو ان هذا العصر كان في كلتيهما عصر رخاء واقبال من الوجهتين الاقتصادية والعلمية

بولس مسعد